(٥) بين الأزهر والإخوان

العلامة القرضاوى:

- ليس فى قلبى متسع للضغائن والأحقاد، ولا أشغل نفسى بمعاداة مسلم.
- تعلمت من مشايخى فى الأزهر علوم الدين واللغة، ولم يضيقوا بنقاشى وأسئلتى.
- نقلنى مشايخ جماعة الإخوان المسلمين من تدين القرية الفردى إلى دعوة الإسلام العالمية.
- ما قدمت لدينى ولأمتى حتى الآن إلا القليل.
- القرضاوى يدشّن مشروع المؤسسة العالمية الإسلامية لرعاية الموهوبين.
- هذه هى معالم تيار الوسطية الإسلامية الذى أتبناه فى الفكر والدعوة.
- مسيرتى كانت صعبة مليئة بالمعاناة، لكنها معاناة بغير جرح.

(٥) بين الأزهر والإخوان

حين وقف د. يوسف القرضاوى يتسلم جائزته من الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ؛ كان هو الشخصية الإسلامية العالمية التى أجمع على اختيارها أمناء الجائزة، ويمنح مليون درهم إماراتى بعد أن نقلته وعائلته (الزوجة والأولاد والأحفاد).. طائرة خاصة، يصحبه فيها رئيس اللجنة المنظمة لجائزة دبى.. لكن القرضاوى يتذكر أن الجائزة الأولى التى حصل عليها كانت جائزة أحفظ صبى للقرآن فى محافظة الغربية، وكان مقدارها جنيهاً مصرياً وربع جنيه أخذ محفظه للقرآن الربع وكان الجنيه من نصيبه.. أما المليون فقد تبرع بربعه إلى مشروع (الإسلام على الإنترنت) الذى يترأس مجلس إدارته، وثلاثة أرباع المليون تبقى وقفاً لمشروع كبير يحلم به الداعية المعاصر ؛ هو مشروع المؤسسة العالمية الإسلامية لرعاية الموهوبين من أبناء المسلمين.

وما بين الاحتفال التكريمى فى كُتَّاب الشيخ حامد حين ختم القرآن الكريم دون العاشرة، إذ كان الحضور الأقارب ومشايخ (صفط تراب) وأكواب الشربات وزغاريد النساء المصريات، والاحتفال فى دبى على فضائيتها وعرضها البانورامى لبعض حياة الشيخ، هناك (٦٤) عاماً من الزمن يفرق بين الاحتفالين.

تحدث القرضاوى فى الاحتفال الأخير فقال :

أول ما أذكر والدتى – رحمها الله – التى كانت أول من دفعنى وصحبنى إلى الكتّاب وأنا فى الخامسة من عمرى، وعمى أحمد الذى كفلنى بعد موت أبى وأنا رضيع فى الثانية من عمرى فكان لى خيراً من كثير من الآباء لأبنائهم، وكان يعاملنى كما يعامل أولاده، بل أفضل، وكنت أناديه دائماً : يا أبى.. ثم أبناء عمي الذين كانوا لى أفضل من كثير من الإخوة لإخوانهم، وكانوا لا يدخرون وسعاً لمساعدتي حتى أكمل مشوارى فى الأزهر، وأذكر خالى عبد الحميد الذى كان يعتز بى ويملأ نفسى بالأمل والطموح، وخالتى وجدتى اللاتى كن أمهات لى بعد أمى التى لقيت ربها وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى، وأقاربى جميعاً، الشيخ حامد أبو زويل معلمى فى الكتّاب.

مشايخى فى الأزهر والإخوان

واستطرد:

أذكر مشايخى فى الأزهر، الذين تعلمت على أيديهم علوم الدين واللغة، والذين لم يضيقوا ذرعاً بالفتى الذى يكثر النقاش ولا يمل السؤال.

وأذكر مشايخي فى جماعة الإخوان المسلمين الذين وسعوا آفاقى، وعمقوا أهدافى، ونقلونى من تدين القرية الفردى إلى دعوة الإسلام العالمية، فحددت غايتى، وعرفت طريقى، وعرفت أمتى الكبرى، واهتممت بقضاياها، وعشت همومها.

كيف تلاقى الحجارة ؟

سألته قبل أن يسافر من الدوحة إلى دبى: ما هو منهجك فى التعامل مع من يترصدون لك بالحجارة فى الفترة الأخيرة خاصة: الأحباش ثم حزب التحرير ؟

قال: رضا الناس غايةٌ لا تدرك، قال الشاعر:

وَمَنْ فى النَّاسِ يُرْضى كُلَّ نَفْسٍ وَبَيْنَ هَوَى النُّفُوسِ مَدًى بَعِيدُ؟

وقد أوذى الإمام أحمد وأدخل السجن، وأصابه ما أصابه فى فتنة (خلق القرآن)، فلما ذهبت محنته سألوه عمن آذوه، فسامح فيما كان من حقه هو، لا ما كان من حق الله، وقال: ماذا ينفعك أن يدخل أخوك النار ؟.. وقد نشأت فى رحاب دعوة كان مؤسسها حسن البنار رحمه الله؛ يدعو إلى الحب ويقول: سنقاتل الناس بالحب.

- **لكن هل تتأثر نفسك بما يبثه آخرون – فى الخط الإسلامى خاصة – من تجريح لك ؟**

– أؤكد لك أنه ليس فى حياتى ولا فى قلبى متسع للضغائن والأحقاد على المسلمين، ولا أشغل نفسى بمعاداة مسلم، وإن خالفنى فى الاتجاه أو فى الرأى، فأنا مشغول القلب والفكر والجهد والوقت بأعداء الدين، وأعداء الأمة.. أما قومى فهم منى وأنا منهم، وأنا

أعفو إن شاء الله وأصفح، كما أنزل الله فى شأن أبى بكر حين آلى ألا يعطى بعض أقاربه الذين خاضوا فى حديث الإفك ومسوا بألسنة السوء ابنته عائشة أم المؤمنين، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وأنا متصدق بعرضى على من آذانى من المسلمين، يغفر الله لى ولهم.. لكنه توقف قائلاً:

إلا من كان من حق الله تعالى، وحق الإسلام، فليس من شأنى أن أسامح فيه، فمن كان يعمل لحساب خصوم الإسلام فإنى أستعدى عليه سهام القدر ودعاء السَّحَر.

ماذا قدمت طوال ثلاثة أرباع قرن ؟

• هل ترى عبر رحلة ثلاثة أرباع القرن أنك قدمت الكثير الذى تريد للإسلام ؟

على العكس ؛ فإنى أنظر إلى ما قدمت لدينى ولأمتى فأجده شيئاً قليلاً أو أقل من القليل.

• لكن أكثر من مئة كتاب، ومحاضرات، وبرامج ؛ قد مثَّلت فكراً إسلامياً معاصراً، هل ترى كل ذلك قليلاً؟ وما هو مقياسك لذلك ؟

أرى ما قدمت قليلاً لمستوى الدين الذى أكرمنا الله به، وأتم به النعمة علينا وما يتطلب منا من بذل وعطاء، وأراه قليلاً بالنسبة لما قدمه أسلافنا العظام لدينهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومن الأئمة المتبوعين، ومن رجال أعلام نذروا حياتهم لدينهم، أمثال الغزالى وابن عبد السلام وابن تيمية وابن القيِّم، وبالنسبة لما قدمه رجال مسلمون فى عصرنا صدقوا ما عاهدوا الله عليه منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً، منهم من قدَّم عنقه فى سبيل الله إلى حبل المشنقة، ومنهم من اغتيل فى الطريق ومنهم من عاش حياته معافىً صابراً مرابطاً فى أيام سماها الحديث الشريف: (أيام الصبر القابض على دينه كالقابض على الجمر)، وأخيراً أرى ما قدمت قليلاً بالنسبة لما يقدمه الآخرون لدينهم فلقد رأينا اليهود يبذلون لدينهم حتى أقاموا له دولة فى قلب ديارنا تتحدى أمتنا الكبرى.. ورأينا النصارى

يبذلون لدينهم حتى كانت لهم جيوش من المنصرين والمنصرات فى أنحاء العالم، بلغت نحو أربعة ملايين وثلاثة أرباع المليون.

تكريم لتيار الوسطية

• كيف تنظر إلى هذا التكريم الذى منحك جائزة الشخصية الإسلامية العالمية لعام ٢٠٠٠م ؟

أرى هذا التكريم ليس مجرد تكريم لشخصى، بل هو تكريم لتيار أمثّله وأتبنّاه وأدعو إليه تيار نذرت فكرى وجهدى ولسانى وقلمى للتعريف به، والدعوة إليه، والدفاع عنه.. وهو تيار الوسطية الإسلامية الذى يعبر عن وسطية هذا الدين، الذى سماه الله فى كتابه (الصراط المستقيم)، ويعبر عن وسطية هذه الأمة التى زكّاها الله تعالى بقوله: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

• هل يمكننا التوقف عند معالم أساسية متميزة لتيار الوسطية الإسلامية الذى تتبنّاه فى الفكر والدعوة ؟

أهم معالم هذا التيار هى: التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوة، والجمع بين السلفية والتجديد، أو بين الأصالة والمعاصرة، والموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، والمزاوجة بين الواجب والوقع (فقه الواقع)، والحوار والتعايش مع الآخرين، والتسامح مع المخالفين، وتبنى الشورى والعدالة وحرية الشعوب وحقوق الإنسان، وإنصاف المرأة وتحريرها من جور التقاليد الموروثة من عصور التخلف، ومن جور التقاليد الدخيلة الوافدة من حضارة التحلل، وتقديم الإسلام رسالة حضارية متكاملة متوازنة لبعث الأمة وتحريرها وتوحيدها.

ما هى الوسطية الإسلامية ؟

• ما هى طبيعة هذه الوسطية؛ هلى تعنى عدم اتخاذ موقف محدد ؟ أم تعنى التوسط بين تيارين بتيار واضح ؟ هل تمثل الأمثلة وضوحاً أمام القارئ ؟

وسطية هذا التيار تقوم على موقفه المعتدل من قضايا مهمة، جنح فيها الكثيرون إلى الإفراط أو التفريط، ولكنه حرص دائما أن يكون كما أمرر الله تعالى فى كتابه:

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧- ٩]، فهذا هو موقفه الثابت فى قضايا الفكر والعمل: لا طغيان ولا إخسار فى الميزان، فهو وسط بين دعاة المذهبية الضيقة ودعاة اللامذهبية المنفرطة، وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع، وأعداء التصوف وإن التزم واتبع.

وسط بين المحكمين للعقل وإن خالف النص القاطع، والمغيبين للعقل ولو فى فهم النص، وسط بين الناس يأخذون الحضارة الغربية بخيرها وشرها، وبين الذين يرفضونها بالكلية، وسط بين دعاة التشدد ولو فى الفروع والجزئيات، ودعاة التساهل ولو فى الأصول والكليات، وسط بين المقدسين للتراث وإن بدا فيه قصور البشر والملغين للتراث وإن تجلّت فيه روائع الهداية.

وسط بين فلسفة المثاليين الذين لا يكادون يهتمون بالواقع، وفلسفة الواقعيين الذين لا يؤمنون بالمثل العليا، وسط بين دعاة الفلسفة (الليبرالية)، التى تعطى الفرد وتضخمه على حساب المجتمع، ودعاة الفلسفة الجماعية (الماركسية) التى تعطى المجتمع وتضخمه على حساب الفرد، وسط بين دعاة الثبات ولو فى الوسائل والآلات.. ودعاة التطور ولو فى المبادئ والغايات.

وسط بين داعاة التجديد والاجتهاد وإن كان فى أصول الدين وقطعياته، ودعاة التقليد وخصوم الاجتهاد وإن كان فى قضايا العصر التى لم تخطر ببال السابقين، وسط بين الذين يهملون النصوص الثابتة بدعوى مراعاة مقاصد الشريعة، والذين يغفلون المقاصد الكلية باسم مراعاة النصوص.

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر وسط بين دعاة الغلو فى التفكير حتى كَفَّروا عامة المسلمين المتدينين، والمتساهلين فيه ولو مع صرحاء المرتدين، وسط بين المستغرقين فى السياسة على حساب التربية، والمهلمين كلية للسياسة بدعوى التربية، وسط بين المستغرقين فى الحاضر غائبين عن المستقبل، المبالغين فى التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرؤونه، وسط بين المقدسين للأشكال التنظيمية كأنها أوثان تعبد، والمتحللين من أى عمل منظّم كأنهم حبات عقد مفرط، وسط بين الدعاة إلى العالمية، دون

مراعاة للظروف والملابسات المحلية، والدعاة إلى الإقليمية الضيقة دون أدنى ارتباط بالحركة العالمية.

وسط بين المسرفين فى التفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر، والمسرفين فى التشاؤم فلا يرون إلا الظلام، ولا يرقبون للظلام فجراً، وسط بين المغالين فى التحريم كأنه لا يوجد فى الدنيا شيء حلال، والمبالغين فى التحليل كأنه لا يوجد فى الدين شيء يسمى حراماً.

جوائز فى حياة القرضاوى

لكن الذى ينبغى تذكره هو أن جائزة الشخصية الإسلامية العالمية، التى حصل عليها القرضاوى، ليست هى الجائزة الأولى العالمية التى يحصل عليها، وإن كانت هى الأكبر قيمة، ففى عام ١٤١١هـ حصل على جائزة البنك الإسلامى للتنمية فى الاقتصاد الإسلامى، وفى عام ١٤١٣هـ حصل على جائزة الملك فيصل العالمية فى الدراسات الإسلامية (بالاشتراك)، ومن ماليزية على جائزة العطاء العلمى المتميز من رئيس الجامعة الإسلامية العالمية، وكان ذلك عام ١٩٩٦م، وفى عام ١٩٩٧م حصل على جائزة السلطان حسن البلقيه (سلطان بروناوى) فى الفقه الإسلامى، وفى العام الماضى حصل على جائزة سلطان العويس فى الإنجاز الثقافى والعلمى ١٩٩٩م، وكان ذلك فى دولة الإمارات العربية المتحدة أيضاً.

شرعية الجوائز

● **سألته عن التأصيل الشرعى لفكرة الجوائز فأجاب :**

إعطاء الجائزة للمتسابق أمر مشروع: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]، ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١]، فهذه المسابقة مشروعة وقال تعالى أيضا: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨]، والتسابق والتنافس فى الخير مطلوب، والنبى ﷺ سابق بين الخيل وأعطى السابق جائزته، وكان يكافئ ﷺ أصحابه إذا قدموا خدمة جليلة للإسلام.. وإذا كان غير المسلمين ينظمون جوائز عالمية مثل جائزة نوبل وغيرها، فلا مانع أن تكون للمسلمين جوائزهم لتكريم العلماء الذين يبذلون جهداً مميزاً، وأعتقد أنها عمل إيجابى فى حد ذاته إذا وضعت فى موضعها وروعيت ظروفها وضوابطها، ولم تدخل فيها الأهواء، وهذه الجوائز

تكون كما قال الله عنها بحق أم موسى: ترضع ولدها وتأخذ أجرها؛ فأم موسى أرضعت ابنها وهو واجب عليها، ومع ذلك أخذت أجراً على ذلك.

مؤسسة الموهوبين المسلمين

● ثم سألته: تبنى الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم مشروعكم المؤسسة العالمية الإسلامية لرعاية الموهوبين من أبناء المسلمين.. ما هى ملامح هذا المشروع؟ وكيف تكون بدايته القادمة بعد أن أوقفتم له ثلاثة أرباع الجائزة؟

منذ سنوات وأنا أحلم بمشروع (مؤسسة إسلامية عالمية) لرعاية الموهوبين من أبناء المسلمين، فهؤلاء النوابغ والمتفوقون هم أعظم ثروة تمتلكها الأمة، وهم الذى يستطيعون أن ينهضوا بها فى مضمار الرقى المادى والمعنوى، إذا أحسنت الأمة توجيههم وتوظيفهم، ولم تدعهم يضيعون وتضيع مواهبهم وقدراتهم فى أعمال روتينية يستطيع أقل الناس حظاً من الذكاء أن يقوم بها، وتأتينى رسائل من أنحاء العالم الإسلامى، ومن الأقليات الإسلامية فى الغرب والشرق من شباب نابغين، ولا يجدون فرصة للدراسة الجامعية، فضلاً عن الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه.

وأنا أعلم أن الكنيسة لديها جمعيات ومؤسسات تحتضن النوابغ والموهوبين من أبناء دينها، وتنفق عليهم بمنح كاملة أو جزئية أو بقرض يسدونه بعد تخرجهم بالتدريج، ولا يوجد لدينا نحن أمة الإسلام- على المستوى العالمى- مؤسسة تسد هذه الثغرة وتلبى هذه الحاجة، كما تتابعهم حتى لا تلتقطهم القوى الأخرى فى أوروبة وأمريكة فتخسرهم بلادهم خسارة كبيرة، وهى من أشد الحاجة إليهم.. والحمد لله فقد وافق سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم على بدء الإجراءات التنفيذية لهذا المشروع، والذى يبدأ باختيار أرض فى موقع مناسب ليقام عليها مبنى إدارى تجارى يوقف على المشروع، كما أذِنَ بإنشاء لجنة تحضيرية لإعداد تصور كامل للمشروع، واختيار مقرّ مناسب لها لممارسة عملها.

حكاية الفرافيت

● حين بدأ مشروعكم الحلم لرعاية الموهوبين يتحقق أو يرى خطواته الأولى، هل ما زال النجم المعاصر وصاحب جائزة المليون درهم يتذكر الشيخ يوسف الأزهرى الطالب فى معهد طنطا الدينى؟

حقاً ما زلت أذكره، أذكر أن المسيرة فى عقودها الأولى كانت صعبة، لكن الله عزَّ وجلّ ذللها، كانت عسيرة، لكن الله يسَّرها؛ أذكر أننا ونحن طلاب فى المعهد الدينى بمدينة

طنطا، كثيراً ما كانت تنفد منا النقود قبل أوانها المحدود، فنعيش على الخبز والملح أياماً، وفى مرة من المرات نفد الخبز نفسه، ولم يبقَ من (الزوادة) إلا (الفرافيت)؛ فظللنا نأكل منها أياماً، وكنا مجموعة نسكن متجاورين، وكلنا عاش على هذه الفرافيت.. وكثيراً ما كنا نقطع الطريق من طنطا إلى قريتنا (صفط تراب) مشاة على أقدامنا، إذ لا نجد قرشين نركب بهما فى القطار أو (الأتوبيس)، وكانت المسافة أكثر من عشرين كيلو متراً، وكنا نحمل سلة فيها ملابسنا، ولكن لم نكن نحسُّ بأى تعب، وخصوصاً أننا عائدون إلى أهلنا.

معاناة بغير جرح

● **كيف تنظر الآن إلى هذه الفترة المليئة بالمعاناة ؟**

لم تكن الطريق مفروشة بالأزهار والرياحين، بل كانت مفروشة بالأشواك، وكانت فعلاً مليئة بالمعاناة، لكن معاناة هذه الأشواك لم تكن تجرح، وإن جرحت كان جرحها غير مؤلم، فقد كانت محببة إلى النفس، ولا أضق بها صدراً، ووجدت فى هذه المعاناة لذة، وفى مرارة الابتلاء حلاوة، وعرفت من قراءاتى الأدبية أن هذا هو الطريق إلى العلا، وكان مما نحفظه فى عهد الصبا:

بقدرِ الجِدِّ تُكسب المعالي — ومَنْ طَلَبَ العُلا سَهرَ اللَّيالى
ومَنْ طلب العُلا من غيرِ كدٍّ — أضاعَ العمرَ فى طلبِ المُحالِ

ولقد يسر الله علينا كثيراً مما كان عسيراً من قبلنا، فقد كان أحدهم يسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد، ويرحل من بلد إلى بلد، ليطلب العلم من أهله وشيوخه، والآن وفرت لنا المطابع هذه المتاعب، وستجد الأجيال القادمة العلم أيسر سبيلاً من جيلنا، بما توفره الآليات الحديثة :

الكمبيوتر والإنترنت وغيرهما، فبلمسة من جهاز يجد ما ينشده أمامه مسطوراً، ولا أخفى عليك معاناة أخرى، لم تكن فى طلب العلم، ولكنها كانت فى سبيل الدعوة إلى الإسلام، فى زمن غربة الإسلام، الذى يشكو إلى الله أبناء عقُوه، وأنصاراً خذلوه، حتى أصبح هذا الدين غريباً فى كثير من أوطانه، وأصبح دعاته غرباء، ولا غرو أن يصطدموا فى أحيان كثيرة بأصحاب السلطان، الذين اتخذوا (العلمانية) منهاجاً لهم، وجعلوا (الغرب) قبلة لهم، ورفضوا شريعة الله حاكمة لهم، قال تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٠]. لقد كانت ثمرة هذا الصدام ألواناً من الأذى فى المعتقلات والسجون نحتسبها عند الله، ولا نَمُنُّ بها على الله تعالى، ولا على أحد من عباده، قال تعالى: ﴿ **بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الحجرات: ١٧].

❖ ❖ ❖